

البرجوازية والثورة المضادة

كارل ماركس

كولونيا، ديسمبر ١٨٤٨

ترجمة: سعيد العليمي

(١)

اننا لم نخف ابدا حقيقة اننا لا ننطلق من اساس قانوني، وانما من اساس ثوري. والان هجرت الحكومة من جانبها ادعاءها الكاذب بأن لها اساسا قانونيا. وقد اتخذت موقفها على اساس ثوري، لأن الاساس المضاد للثورة، هو ايضا، ثوري.

ينص القسم السادس من قانون ٦ ابريل، ١٨٤٨ على ان:

”الحق في اقرار كل القوانين وكذلك تحديد الميزانية القومية وفرض الضرائب يختص به وفي كل الاحوال ممثلوا الشعب في المستقبل.“

القسم الثالث عشر من قانون ٨ ابريل، ١٨٤٨، يقرأ على النحو التالي:

”ان الجمعية التي انعقدت على اساس هذا القانون قد دعيت لوضع الدستور بالاتفاق مع التاج لتمارس خلال دورتها صلاحيات الدايت (مجلس تشريعي. المترجم) الامبراطوري، وبصفة خاصة ما يتعلق بفرض الضرائب.“

اما الحكومة فترسل جمعية المساومين هذه الى الشيطان، وتفرض ما يسمى بالدستور^(١) على البلاد وتقرر الضرائب التي رفض ممثلوا الشعب ان يمنحونها اياها.

ان ملحمة كامبهاوزن الايوبية، وهي نوع من مسرحية فكاهية قانونية فاخرة^(٢) بلغت نهايتها المفاجئة على يد الحكومة البروسية. وردا على ذلك واصل كامبهاوزن العظيم مؤلف هذه الملحمة ببرود تأمره في فرانكفورت بوصفه مبعوثا لنفس هذه الحكومة البروسية، مواصلا مكائده مع رجال البازار في صالح تلك الحكومة البروسية. هذا الكامبهاوزن هو الذي اخترع نظرية الاتفاق حتى يحفظ الاساس القانوني، أي، حتى يخدع الثورة اولا وقبل كل شئ بصدد الاحترام الواجب لها، واخترع في ذات الوقت الالغام التي قدر لها فيما بعد ان تنسف الاساس القانوني ومعه نظرية الاتفاق.

لقد نهض هذا الرجل بأعباء تمرير الانتخابات غير المباشرة، التي تمخضت عن جمعية كان يمكن للحكومة، في وقت التمرد المفاجئ، ان تصرخ في وجهها: تأخرتم جدا! وقد استدعى امير بروسيا، رأس الثورة المضادة، بل ولجأ حتى لكذبة رسمية ليحول هروب الامير الى رحلة دراسية^(٣) وهو لم يلغ القوانين البروسية القديمة التي تتناول القضايا السياسية ولا المحاكم القديمة. وفي ظل حكومته كسبت البيروقراطية والجيش الوقت للتعافي من الرعب الذي اصابهما، ليعيدوا تنظيم هيكلهم كاملا. لم يمس أي من الشخصيات القيادية في النظام القديم بل تركت في مراكزها. وواصلت البطانة في ظل كامبهاوزن الحرب في بوزنان، بينما واصل هو نفسه الحرب في الدنمارك. لقد كان مقصودا ان تكون الحرب الدانماركية طريقا لاستنزاف فائض الوطنية^(٤) لدى لشباب الالمانى، الذي انزلت به الشرطة عقب عودته عقوبات تأديبية ملائمة. كان على هذه الحرب ان تعطي بعض الشعبية للجنرال رانجل وفيالقه سيئة السمعة من الحراس، وبصفة عامة لاعادة تأهيل الجيش البروسي. تحقق هذا الهدف، وكان على الحرب المصطنعة ان تنتهي بأي ثمن بهدنة مشينة، جرى التفاوض بشأنها مرة اخرى في فرانكفورت بين نفس الكامبهاوزن والجمعية الوطنية الالمانية. كانت ثمار الحرب الدانماركية تعيين "قائد عام للبراندبورجين الاثنتين"^(٥) وعودة فيالق الحراس الى برلين التي كانت قد اجليت عنها في مارس.

والحرب التي شنتها بطانة بوتسدام في بوزنان تحت رعاية كامبهاوزن!

لقد كانت الحرب في بوزنان اكثر من ان تكون حربا ضد الثورة البروسية. لقد كانت سقوط فيينا، سقوط ايطاليا، هزيمة ابطال يونيو. لقد كانت اول انتصار حاسم حققه القيصر الروسي على الثورة الاوروبية. وقد تحقق كل هذا تحت رعاية كامبهاوزن العظيم ، الصديق المفكر للتاريخ^(٦)، فارس الجدل الكبير، بطل المفاوضات.

حازت الثورة المضادة في ظل كامبهاوزن وبمساعده كل المراكز الهامة، لقد اعد جيشا مستعدا للعمل بينما اهتمت الجمعية بمداوماتها.

في ظل هانسمان - بينتو^(٧) وزير الممارسة العملية، زودت قوى الشرطة بزبي جديد، وشنت البورجوازية حربا - مريرة بقدر ماهي حقيرة - ضد الشعب. وقد استخلصت نتيجة هذه المقدمات في ظل حكم براندنبورج. الاشياء الوحيدة التي كانت هناك حاجة اليها هي شارب وسيف بدلا من رأس.

حين استقال كامبهاوزن صحنا متعجبين:

لقد بذر الرجعية كما تفسرها البورجوازية، وسوف يحصد الرجعية كما تفسرها الارستقراطية والحكم المطلق.

لا يخامرنا الشك في ان فخامة، المبعوث البروسي كامبهاوزن، يعتبر نفسه في هذه اللحظة من سادة الاقطاع وقد توصل الى اتفاق سلمى مع "سوء فهمه".

مع ذلك لا يتعين علينا، ان نرتكب خطأ نسبة حوافز ذات دلالة تاريخية عالمية لمتوسطي القدرات امثال كامبهاوزن وهانسمان. فهم لم يكونوا شيئا سوى ادوات طبقة. لغتهما، افعالهما، كاتنا الصدى الرسمي فحسب لطبقة انت بهما الى المقدمة. لقد كانا ببساطة البورجوازية الكبيرة وقد وضعت في الواجهة.

لقد شكل اعضاء هذه الطبقة المعارضة الليبرالية في الدايت الاقليمي المتحد الاخير، ذو الذكرى المباركة، بعد ان بعث كامبهاوزن للحظة.

لقد وجه اللوم الى السادة اعضاء هذه المعارضة الليبرالية بأنهم تخلوا عن مبادئهم بعد ثورة مارس. هذه مغالطة.

اصبح كبار ملاك الارض والراسماليين – وقد كانوا الوحيدين الذين نالوا حق التمثيل في الدايت الاقليمي المتحد – باختصار الاثرياء، اكثر ثراء وتعلما. ومع تطور المجتمع البورجوازي في بروسيا، بمعنى آخر، مع تطور الصناعة، والتجارة والزراعة فقدت التمايزات الطبقيّة القديمة من ناحية اساسها المادي.

لقد تبرجت الارستقراطية نفسها الى حد كبير. وبدلا من التعامل في الولاء، والحب والايمان، تتعامل الان بشكل اساسي في جذور البنجر، والمشروبات الكحولية والصوف. وقد عقدت مبارزاتها في سوق الصوف. من ناحية اخرى فإن الدولة المطلقة، التي فقدت اساسها الاجتماعي في مجرى التطور، اصبحت قيذا معيقا للمجتمع البورجوازي الجديد مع نمط انتاجه المتغير ومتطلباته المتغيرة. كان على البورجوازية ان تطالب بنصيبها في السلطة، وان يكن ذلك بسبب مصالحها المادية. يمكن للبورجوازية وحدها ان تؤكد قانونيا مطالبها الصناعية والتجارية. وقد كان عليها ان تنتزع ادارتها من هؤلاء، أي "اشد مصالحها قداسة" من ايدي بيروقراطية عتيقة كانت جاهلة ومتعجرفة في نفس الوقت. لقد كان عليها ان تطالب بالسيطرة على الثروة القومية، التي اعتبرت نفسها خلقتها. بعد ان جردت البيروقراطية من احتكار ما يسمى التعليم وهي واعية بحقيقة انها تملك معرفة ارفع بما لا يقاس بمتطلبات المجتمع البورجوازي، فإن البورجوازية لديها ايضا الطموح لتؤمن لنفسها وضعا سياسيا يتوافق مع وضعها الاجتماعي. وحتى تحقق هذا الهدف كان عليها ان تكون قادرة على نقاش مصالحها الخاصة ووجهات نظرها وتصرفات الحكومة بحرية. وقد اسميت هذه "حرية الصحافة". وكان لها ان تكون قادرة على تشكيل الجمعيات بحرية. وقد اسمى هذا "حق تشكيل الجمعيات بحرية". وكنتيجة

ضرورية للمنافسة الحرة، كان لها ان تطالب بالمثل بالحرية الدينية وما الى ذلك. كانت البورجوازية البروسية قبل مارس ١٨٤٨ تتحرك بسرعة لتحقيق كل هذه الاهداف.

كانت الدولة البروسية تعاني من مصاعب مالية. وقد استنفدت قدرتها على الاقتراض. وكان هذا هو السبب السري لعودة الدايت الاقليمي المتحد للانعقاد. ورغم ان الحكومة صارعت ضد مصيرها وحلت بفضاظة الدايت الاقليمي المتحد، فإن الافتقار للنقود والتسهيلات الائتمانية كان سوف يدفعها تدريجيا حتما لاحضان البورجوازية. ان هؤلاء الذين هم ملوك بنعمة الله قد قايسوا دوما امتيازاتهم بالعملة الصعبة، كما فعل بارونات الاقطاع. كان الاثر الاول العظيم لهذه الصفقة التاريخية في كل الولايات المسيحية الجرمانية هو تحرير الاقنان، وكان الاثر الثاني هو الملكية الدستورية. "ليس للنقود سيد"، ولكن السادة يتوقفون عن ان يكونوا سادة بمجرد ان تتم شيطنتهم.

وهكذا كانت المعارضة الليبرالية في الدايت الاقليمي المتحد تشي ببساطة بأن البورجوازية باتت تتعارض مع شكل سياسي لم يعد ملائما لمصالحها واحتياجاتها. وحتى تعارض البلاط، كان عليها ان تكسب الشعب.

وربما تخيلت هي ان معارضتها كانت من اجل الشعب حقا.

من الواضح، ان الحقوق والحريات التي سعت لها البورجوازية لنفسها كان يمكن ان تطلب من الحكومة فقط تحت شعار: الحقوق الشعبية والحريات الشعبية.

كانت هذه المعارضة، كما قلنا آنفا، تتحرك بسرعة صوب هدفها حينما انفجرت عاصفة فبراير.

هوامش:

(١) وضع هذا الدستور المفروض موضع التطبيق في ٥ ديسمبر، ١٨٤٨، بالتزامن مع حل الجمعية القومية البروسية. وقد تضمن هذا الدستور برلمانا من مجلسين منتخب عن غير طريق

الانتخاب المباشر. كان عدد المواطنين الذين لهم حق الانتخاب للمجلس الاول مقيدا بنصاب كبير من الملكية. وقد سهلت السلطات الكبيرة التي منحها الدستور للتاج التقدم اللاحق للثورة المضادة.

(٢) الايوبية هي عنوان قصيدة ساخرة كتبها كارل ارنولد كورتوم.

(٣) كان امير بروسيا واحدا من اشد القادة المكروهين من البطانة الرجعية. هرب خلال ثورة مارس الى انجلترا وعاد الى برلين في ٤ يونيو، ١٨٤٨. وفي ٦ يونيو سعى كامبهاوزن لتصوير هروب الامير وكأنه رحلة قام بها لاسباب دراسية.

(٤) تعبير "فائض الوطنية" استخدمه الشاعر هينه في احدى قصائده.

(٥) كان الجنرال رانجل، الذي كان مرتبطا مع عصابة البلاط الرجعية، في ١٥ سبتمبر، ١٨٤٨، قد عين قائدا عاما في مقاطعة براندنبورج العسكرية، التي شملت في هذا الوقت قسمين، كورمارك ونويمارك.

(٦) تعليق ساخر عبر عنه ماركس وانجلز يحيل على كتاب لكارل فون روتك عنوانه الفرعي: من اجل الاصدقاء المفكرين للتاريخ.

(٧) احالة الى التشابه القائم بين الاجراءات التي اقترحها هانسمان وزير المالية البروسي (أي، قرض اجباري كوسيلة لتحفيز تداول النقود) ووجهات نظر بينتو، المضارب الهولندي، الذي اعتبر الاوراق المالية عاملا يسرع تداول النقود.

(٢)

حينما انحسر فيضان مارس - وهو فيضان مصغر - لم يترك على سطح برلين اطفالا عابرة، ولا عمالقة ثوريين، وانما مخلوقات تقليدية، اغلظ الشخصيات البورجوازية - ليبراليوا الدايت الاقليمي المتحد، ممثلوا البورجوازية البروسية الواعية. لقد وفد الممثلون الرئيسيون للوزارات الجديدة من اقليم الراين وسيليزيا، وهي الولايات التي تمثل البورجوازية الاشد تقدما. وقد تبعهم طابور كامل من المحامين. وبمجرد ان ازيحت البورجوازية خلفا من قبل الارستقراطية الاقطاعية

حلت محل اقليم الراين وسيليزيا في الوزارات الولايات البروسية القديمة. و تقوم الصلة الوحيدة لوزارة براندنبورج مع اقليم الراين من خلال البرفد توري بمفرده. ويمثل هانسمان وفون درهيدت! أي هذان الاسمان الفارق الكامل بين مارس وديسمبر ١٨٤٨ بالنسبة للبورجوازية البروسية.

لقد بلغت البورجوازية البروسية الذروة السياسية، لامن خلال صفقة سلمية مع التاج، كما رغبت، وانما نتيجة للثورة. وكان عليها الا تدافع عن مصالحها الخاصة، وانما عن مصالح الشعب - لأن الحركة الشعبية هي التي مهدت الطريق للبورجوازية - ضد التاج، بمعنى آخر، ضد نفسها. ولأن البورجوازية قد اعتبرت التاج ببساطة ستارا بعثته النعمة الالهية، ستارا كان عليه ان يخفي مصالحها الدنيوية، فقد كانت حرمة مصالحها الخاصة والاشكال السياسية الملائمة لهذه المصالح وقد جرى التعبير عنها في لغة دستورية، هي حرمة التاج. من هنا تأتي حماس البورجوازية الالمانية للملكية الدستورية. ورغم ان ثورة فبراير بكل اصداءها في المانيا قد رحبت بها البورجوازية البروسية، لأن الثورة قد وضعت ادارة الدولة في يدها، فانها ايضا عاكست خطط البورجوازية، لأن حكمها كان مقيدا بشروط لا تمثل ارادتها كما انها كانت غير قادرة على انجازها.

لم ترفع البورجوازية اصبعها، غايتها انها سمحت للشعب ان يقاتل من اجلها. لذا فإن الحكم الذي دعيت لممارسته لم يكن حكم قائد هزم خصمه، وانما حكم لجنة للسلامة العامة عهد اليها الشعب المنتصر بحماية مصالحه.

كان كامبهاوزن ما يزال مدركا بوضوح هذا الوضع المحرج، ويرجع ضعف وزارته بشكل كامل لهذا الشعور والظروف التي انتجتته. حتى اشد افعال حكومته عارا قد صبغت من ثم بنوع من حمرة الخجل. اما عدم الحياء المكشوف والغطرسة فقد كانت مميزات هانسمان، والبشرة الحمراء هي كل ما يميز هذين الفنانين الواحد عن الآخر.

ولا يجب ان نخلط ثورة مارس في بروسيا مع أي من الثورة الانجليزية لعام ١٦٤٨ او مع الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩.

لقد تحالفت البورجوازية عام ١٦٤٨ مع الارستقراطية الحديثة ضد الملكية، والارستقراطية الاقطاعية والكنيسة القائمة.

وتحالفت البورجوازية عام ١٧٨٩ مع الشعب ضد الملكية، والارستقراطية والكنيسة القائمة.

ان نموذج ثورة ١٧٨٩ (على الاقل في اوروبا) مثلته فقط ثورة ١٦٤٨، ونموذج ثورة ١٦٤٨ مثلته ثورة هولندا ضد الاسبان.^(١) والثورتان معا تقدمتا بقرن على نموذجهما ليس فقط في الزمان وانما ايضا في المضمون.

وفي الثورتين جميعا كانت البورجوازية هي الطبقة التي تزعمت الحركة. ولم تكن البروليتاريا والشريحة غير البورجوازية من الطبقة الوسطى قد طورت مصالح متميزة عن مصالح البورجوازية او انهما لم تشكلا بعد طبقات مستقلة او اقساما من طبقات. وعلى ذلك، حيثما عارضوا البورجوازية، كما فعلوا في فرنسا عام ١٧٩٣ و ١٧٩٤، فقد قاتلوا لتحقيق اهداف البورجوازية، وان يكن بطريقة غير بورجوازية. لقد كان الارهاب الفرنسي بكامله بمثابة طريقة عامية في التعامل مع اعداء البورجوازية، الحكم المطلق، الاقطاع وما يمثل القديم.

لم تكن ثورتي ١٦٤٨ و ١٧٨٩ ثورتان انجليزية وفرنسية، لقد كانتا ثورتان على الطراز الاوروبي. وهما لم تمثلا انتصار طبقة اجتماعية خاصة على النظام السياسي القديم، لقد اعلنا النظام السياسي للمجتمع الاوروبي الجديد. لقد انتصرت البورجوازية في هاتين الثورتين، ولكن كان انتصار البورجوازية في هذا الزمان انتصارا لنظام اجتماعي جديد، انتصار الملكية البورجوازية على الملكية الاقطاعية، للقومية على الاقليمية، للمنافسة على الطائفة الحرفية، للتقسيم (فيما يخص الارض) على حق البكورة، لحكم مالك الارض على هيمنة المالك بواسطة الارض، للتنوير

على الخرافة، وللعائلة على اسم العائلة، وللصناعة على الكسل البطولي، وللقانون البورجوازي على امتيازات القرون الوسطى. لقد كانت ثورة ١٦٤٨ انتصارا للقرن السابع عشر على القرن السادس عشر، كما كان انتصار ثورة ١٧٨٩ انتصار القرن الثامن عشر على القرن السابع عشر. لقد عكست هاتان الثورتان احتياجات العالم في هذا الزمان وليس احتياجات تلك الاقسام من العالم التي جرت فيها، أي انجلترا وفرنسا.

لم يكن هناك شئ من ذلك في ثورة مارس البروسية.

لقد ازلت ثورة فبراير الملكية الدستورية من الناحية الفعلية غير انها ازلت حكم البورجوازية من الناحية الاسمية. لقد كان يتعين على ثورة مارس البروسية ان تؤسس اسما الملكية الدستورية وتؤسس فعليا حكم البورجوازية. لقد كانت ابعد من ان تكون ثورة اوروبية، غير انها مثلت صدى ضعيفا لثورة اوروبية في بلد متخلف. وبدلا من ان تكون متقدمة قرنا من الزمان، فقد كانت متأخرة نصف قرن عن زمنها. لقد كانت منذ البداية الاولى ظاهرة ثانوية، ومن المعروف ان الامراض الثانوية اصعب في الشفاء، ويمكن لها ان تسبب اضرارا اشد مما يمكن ان تسببه الامراض الاولى. لم تكن المسألة مسألة تأسيس مجتمع جديد، وانما بعث مجتمع في برلين كانت قد انتهت صلاحيته في باريس. لم تكن ثورة مارس البروسية حتى ثورة قومية المانية، لقد كانت منذ البداية ثورة اقليمية بروسية. في فيينا، كاسل، ميونيخ وفي مدن اقليمية متنوعة جرت انتفاضات اقليمية بموزاتها ونافستها.

بينما احرزت ثورتا عام ١٦٤٨ و ١٧٨٩ ثقة في الذات لا حدود لها انطلاقا من معرفة انهما كانتا تقودان الكوكب، فقد كان طموح (ثورة) برلين لعام ١٨٤٨ ينطوى على مفارقة تاريخية. كان ضوءها مثل ضوء النجوم التي تصلنا، نحن سكان الارض، فقط بعد ان تكون الاجسام التي انبثق عنها قد همدت منذ مئات الاف الاعوام. كانت ثورة مارس في بروسيا، على نطاق ضيق – مثلما فعلت كل شئ

على نطاق ضيق - هذا النجم بالنسبة لاوروبا. لقد كان ضوءها ضوء جسم اجتماعي تحلل منذ زمن بعيد.

لقد تطورت البورجوازية الالمانية بشكل غاية في البلادة، بجبن وببطء حتى انها في اللحظة التي واجهت فيها الاقطاع والحكم المطلق متوعة اثارته ضدها البروليتاريا المعرضة للخطر ومعها كل اقسام الطبقة الوسطى التي ارتبطت مصالحها وافكارها بمصالح وافكار البروليتاريا. لم تجد البورجوازية الالمانية طبقة واحدة فقط خلفها، ولكنها وجدت كل اوروبا تواجهها بعداوة. وبخلاف البورجوازية الفرنسية في عام ١٧٨٩، لم تكن البورجوازية البروسية، حينما واجهت الملكية والارستقراطية، ممثلي المجتمع القديم، طبقة تتحدث لصالح كل المجتمع الحديث. لقد اختزلت الى نوع من طائفة متميزة بوضوح عن التاج بقدر ماهي متميزة عن الشعب، مع ميل قوى لمعارضة الخصمين ومترددة ازاء كل منهما منفردين لانها رأتها دائما اما في مقدمتها او خلفها. وكانت تميل منذ البداية لأن تخون الشعب وان تساوم مع الممثلين المتوجين للمجتمع القديم، وقد جعلت انتماءها بالفعل للمجتمع القديم، وهي لم تدفع قدما مصالح مجتمع جديد ضد المجتمع القديم، وانما قدمت مصالح مجددة داخل مجتمع عتيق. ولم تتولى قيادة الثورة لأن الشعب قد اصطف ورائها وانما لأن الشعب قد ساقها امامه، لقد تصدرت لانها مثلت فحسب حقد حقبة اجتماعية قديمة وليس مبادرات حقبة جديدة. طبقة من الدولة القديمة اخفقت ان تنجز وتحقق، القى بها على سطح الدولة الجديدة بقوة الزلزال، بدون ثقة في نفسها، وبدون ثقة في الشعب، تتذمر من هؤلاء الذين فوق، مرتعبة من هؤلاء الذين تحت، انانية ازاءها ومدركة لأنانيتها، ثورية بالقياس الى المحافظين ومحافطة بالقياس الى الثوريين. وهي لم تثق في شعاراتها الخاصة، واستخدمت الفاذا بدلا من ان تستخدم افكارا، وارتعبت من عاصفة العالم واستغلته من اجل غاياتها الخاصة، ولم تبداية طاقة في أي مكان، غير انها لجأت للانتحال في كل مكان، لقد كانت مبتذلة لانها غير اصيلة، لكنها اصيلة في ابتذالها، تساوم على مطالبها الخاصة، تفتقر للمبادرة، وبدون ثقة في نفسها، بدون ثقة في الشعب، وليست لها مهمة تاريخية،

مخرفة بغيضة تجد نفسها منذورة لأن تقود وتضلل النبض الفتى الاول لشعب قوى، وهكذا تجعله يخدم مصالحها الخرفة الخاصة – بدون عين، بدون اذن، بدون اسنان – بدون أي شئ – هكذا كانت البورجوازية الروسية التي وجدت نفسها في قيادة الدولة البروسية بعد ثورة مارس.

هوامش:

(١) اشارة الى الثورة التي حدثت في هولندا من ١٥٦٦ الى ١٦٠٩.

المصدر: *الجريدة الراينانية الجديدة، العدد ١٦٩، ديسمبر ١٨٤٨. ارشيف*
ماركسيست اورج على النت.

(٣)

ان نظرية الاتفاق، التي نشرتها البورجوازية مباشرة عندما احرزت السلطة ممثلة في وزارة كامبهاوزن بوصفها الاساس “الاعرض” للعقد البروسي الاجتماعي، لم تكن بأي حال نظرية فارغة، فعلى النقيض من ذلك فقد نمت على شجرة الحياة “الذهبية”.

لم تقهر ثورة مارس وسيادة الشعب العاهل بفضل الله. كان التاج، ومعه الدولة المطلقة، مضطران فحسب للوصول الى اتفاق مع منافسهما القديم.

وقدم التاج الارستقراطية كأضحية للبورجوازية، وقدمت البورجوازية الشعب كأضحية للتاج. وفي ظل هذه الظروف تصبح الملكية بورجوازية والبورجوازية ملكية.

هاتان القوتان فقط هما اللتان توجدان منذ ثورة مارس. وهما تستغلان بعضهما البعض كنوع من الضوء المرشد ضد الثورة. ودائماً، بالطبع على “اعرض الاسس الديموقراطية”.

وهنا يكمن سر نظرية الاتفاق.

لقد اسعد تجار الزيت والصوف⁽¹⁾ الذين شكلوا الوزارة الاولى بعد ثورة مارس حماية التاج المفضوح باجنحتهم العامية. وقد كانوا فرحين للغاية بأن باتوا على اتصال بالتاج وبعد ممانعة حفرتهم شهامتهم الخالصة ليهجروا وضعهم الروماني الصارم، أي، الوضع الروماني للدايت الاقليمي المتحد، وان يستخدموا جثة شعبيتهم السابقة ليمأوا الهوة التي هددت بأن تبتلع العرش. لقد تباهي كامبهاوزن بأنه كان (قابلية) مولد العرش الدستوري. كان الرجل القيم متأثرا بوضوح بما فعله، أي بشهامته الخاصة. عانى التاج واتباعه معارضين هذه الحماية المذلة وقاموا بزخم من الافعال الرديئة، أملين في ان تأتي ايام مقبلة افضل.

كان السيد البورجوازي المهذب قد خدع ببعض المجاملات الكلمات المعسولة من الجيش المتحلل جزئيا، والبيروقراطية التي ارتعدت من اجل مراكزها واجورها، والاقطاعيون المذلون، الذين كان قائدهم منهمكا في رحلة تعليمية دستورية.

لقد كانت البورجوازية البروسية اسميا في موضع السيطرة ولم تشك في لحظة ان سلطات الدولة القديمة قد وضعت نفسها بدون تحفظ تحت تصرفها وانها اصبحت امتدادا لقدرتها الكلية.

كانت البورجوازية قد تسمت بهذا الوهم ليس فقط في الوزارة وانما على اتساع النظام الملكي.

الم يتصرف الجيش، والبيروقراطية وحتى امراء الاقطاع بوصفهم شركاء منصاعين ومطيعين في الافعال البطولية الوحيدة التي انجزتها البورجوازية البروسية بعد ثورة مارس، أي، المكائد الدموية غالبا التي قام بها الحرس المدني ضد البروليتاريا غير المسلحة؟ الم ينصت حكام المقاطعات الخاضعين والجنرالات الكبار التائبين باعجاب للتحذيرات الابوية الصارمة التي وجهها المستشارون المحليون الى الشعب - الجهود الوحيدة، الافعال البطولية الوحيدة التي كان هؤلاء

المستشارون المحليون، الممثلون المحليون للبورجوازية (الذين كان ابتذالهم العبودي الطفيلي قد رد فيما بعد بضربات اتباع وينديشجراتس ويللاشي وولدينس) قادرون عليها بعد ثورة مارس؟ هل كان يمكن للبورجوازية البروسية ان تشك بعد هذا ان حقد الجيش السابق، والبيروقراطية والارستقراطية الاقطاعية قد تحول الى ولاء محترم للبورجوازية، المنتصر الشهم الذي وضع كابجا على نفسه وعلى الفوضى؟

من الواضح ان البورجوازية البروسية كان عليها الآن واجب واحد - وهو ان تستقر بارتياح في السلطة، وان تتخلص من الفوضويين المزعجين، وأن تستعيد "القانون والنظام" وان تسترد الارباح التي خسرتها خلال عواصف مارس. لقد بات الامر الآن هو مسألة تخفيض نفقات حكمها الى الحد الأدنى فحسب، ومعها تبعات ثورة مارس التي انت بها. والم تكن الاسلحة التي كانت البورجوازية البروسية قد اضطرت لطلبها باسم الشعب في مواجهة المجتمع الاقطاعي والتاج، مثل حق تشكيل الجمعيات، وحرية الصحافة، مقدرًا لها ان تكسر في ايدي شعب مضلل لم يعد بحاجة لاستخدامها للقتال من اجل البورجوازية والذي كشف عن ميل خطير لاستخدامها ضد البورجوازية؟

لقد كانت البورجوازية مقتنعة بوضوح بأن هناك عقبة واحدة تقف في طريق اتفاقها مع التاج، في صفقتها مع الدولة القديمة، التي تركت لمصيرها، وقد كانت هذه العقبة هي الشعب - قوي لكنه رقيق حقوق^(٢)، كما يقول هوبز.

الشعب والثورة!

كانت الثورة هي الحق الشرعي للشعب، وكانت دعاوى الشعب المتقدمة مؤسسة على الثورة. لقد كانت الثورة هي الكميالية التي سحبها الشعب على البورجوازية. لقد انت البورجوازية للسلطة من خلال الثورة. وكان اليوم الذي انت فيه الى السلطة هو موعد استحقاق الكميالية. وكان على البورجوازية ان ترفض دفعها.

لقد عنت الثورة عند الشعب: انتم، ايها البورجوازيون، تمثلون لجنة السلامة العامة التي عهدنا لها بالحكم حتى تدافعوا عن مصالحنا، مصالح الشعب، في مواجهة التاج، ولكن ليس من اجل ان تتوصلوا لاتفاق مع التاج دفاعا عن مصالحكم الخاصة.

لقد كانت الثورة هي احتجاج الشعب ضد الاتفاق بين البورجوازية والتاج. ومن ثم كان على البورجوازية التي كانت تسعى لاتفاقات مع التاج ان تحتج ضد الثورة.

وقد تم هذا في ظل كامبهاوزن العظيم. لم يعترف بثورة مارس. جعل الممثلون القوميون في برلين من انفسهم ممثلي البورجوازية البروسية، جمعية مساومين، برفض اجراء الاعتراف بثورة مارس.

لقد سعت الجمعية لتفكيك ما سبق عمله. فأعلنت للشعب البروسي بصخب ان الشعب لم يتوصل لاتفاق مع البورجوازية لعمل ثورة ضد التاج، وانما كان هدف الثورة هو تحقيق اتفاق بين التاج والبورجوازية ضد الشعب! وهكذا قضي على الحق الشرعي للشعب الثوري وتأمين اساس قانوني للبورجوازية المحافظة.

الاساس القانوني!

بروجمان، ومن خلاله جريدة كولونيا، انقسمت، اخترفت، وتأوهت كثيرا على "الاساس القانوني" ولطالما فقدت واستعادت هذا "الاساس القانوني" المثقوب ورتفته وتقاذفته من برلين الى فرانكفورت ومن فرانكفورت الى برلين، ضيقته ووسعته، وحولت الاساس البسيط الى ارضية مزخرفة والارضية المزخرفة الى قاع زائف (وهو كما نعلم، الاداة الرئيسية للقيام بشعوذات، والقاع الزائف الى باب سحري لا قاع له، الى الحد الذي تحول فيه الاساس القانوني لقراءنا في النهاية الى اساس جريدة كولونيا، وهكذا يمكن ان يخلطوا لهجة البورجوازية البروسية مع اللهجة الخاصة للسيد جوزيف دومونت، وهو اختراع ضروري للتاريخ العالمي البروسي

تلوكة بشكل اعتباطي جريدة كولونيا، وتعتبر الاساس القانوني ببساطة وكأنه هو الذي قامت عليه جريدة كولونيا.

الاساس القانوني، أي، الاساس القانوني البروسي!

والاساس القانوني الذي استند اليه كامبهاوزن، بطل المناظرة العظيمة، الشبح المنبعث من الدايت الاقليمي المتحد وجمعية المساومين، تحرك بعد ثورة مارس - هل هو القانون الدستوري لعام ١٨١٥^(٣) او قانون ١٨٢٠ الخاص بالدايت الاقليمي^(٤) ام مرسوم عام ١٨٤٧^(٥) ام قانون الانتخاب والاتفاقيات الصادر في ٨ ابريل لعام ١٨٤٨^(٦).

لا شئ من هذه.

لقد عنى "الاساس القانوني" ان الثورة اخفقت في تحقيق ارض صلبة وأن المجتمع القديم لم يفقد ارضه، وأن ثورة مارس كانت "حدثا" مارس تأثيره بوصفه "حافزا" فحسب لانجاز اتفاق بين العرش والبورجوازية، وهو ما جرى الاعداد له طويلا داخل الدولة البروسية القديمة، والحاجة التي عبر عنها العرش نفسه في مراسيمه، غير انه لم يعتبرها "ملحة" قبل مارس. لقد عنى "الاساس القانوني" باختصار، ان البورجوازية ارادت بعد ثورة مارس ان تفاوض العرش على قدم المساواة كما كان الحال قبل احداث مارس، كما لو أن ثورة لم تحدث وان الدايت الاقليمي المتحد قد حقق غرضه بدون ثورة. عنى الاساس القانوني ان الثورة، الحق الشرعي للشعب، قد تم تجاهله في العقد الاجتماعي بين الحكومة والبورجوازية. لقد استنبطت البورجوازية دعاواها من التشريع البروسي القديم حتى لا يستنبط الشعب أي دعاوى من الثورة البروسية الجديدة.

ومن الطبيعي، ان تمرر بلاهات البورجوازية الايديولوجية، وصحفيها، ومن مائلهم، هذه المصالح البورجوازية المخففة بوصفها المصالح الحقيقية للبورجوازية،

ويغنون انفسهم والآخرين باعتقاد ذلك. وقد اكتسبت الجملة التي دارت حول الاساس القانوني جوهر حقيقيا في عقل بروجمان.

لقد انجزت حكومة كامبهاوزن مهمتها، مهمة ان تكون رابطا وسيطا ومرحلة انتقالية. لقد كانت الرابط الوسيط بين البورجوازية التي نهضت على اكتاف الشعب والبورجوازية التي لم تعد تتطلب اكتاف الشعب، بين البورجوازية التي مثلت بوضوح الشعب في مواجهة التاج والبورجوازية التي مثلت واقعا التاج في مواجهة الشعب، بين البورجوازية المنبثقة من الثورة والبورجوازية التي انبثقت بوصفها جوهر الثورة.

قصرت حكومة كامبهاوزن نفسها بحياء على المقاومة السلبية ضد الثورة حتى تتسق مع دورها بانسجام.

ورغم انها رفضت الثورة نظريا، الا انها في الممارسة قاومت تعدياتها فقط وتسامحت فقط مع اعادة تأسيس السلطات السياسية القديمة.

لقد اعتقدت البورجوازية في نفس الوقت انها قد بلغت الحد الذي كان فيه على المقاومة السلبية ان تتحول الى هجوم ايجابي. وقد استقالت حكومة كامبهاوزن لا لأنها ارتكبت خطأ فادحا او آخر، وانما ببساطة لأنها كانت اول وزارة تلت ثورة مارس، لأنها كانت وزارة ثورة مارس وبسبب اصلها كان عليها ان تخفي انها مثلت البورجوازية تحت رداء ديكتاتورية الشعب. ان بداياتها الملتبسة وطابعها الغامض مايزال يفرض عليها بعض الموائيق، والقيود والاعتبارات بصدد سيادة الشعب التي كانت مضجرة بالنسبة للبورجوازية، وقد كان لوزارة ثانية نابعة مباشرة من جمعية المساومين الا تحسب لها حسابا بعد ذلك.

لذلك حيرت استقالتها سياسيي الغرف. وقد تلتها حكومة هانسمان، حكومة الاعمال، حيث نوت البورجوازية ان تنطلق من الفترة التي خدعت فيها الشعب لصالح التاج الى فترة الاخضاع الايجابي للشعب لحكمها بالاتفاق مع التاج. لقد

كانت حكومة الاعمال هي الحكومة الثانية بعد ثورة مارس، وقد كان هذا هو كامل سرها.

هوامش:

(١) اشارة الى كامبهاوزن الذي تاجر قبلا في الزيت والذرة والى هانسمان الذي بدأ كتاجر صوف.

(٢) مقتطف معدل عن مقدمة توماس هوبز لكتاب المواطن.

(٣) مرسوم حول تأسيس هيئة تمثيلية قومية صدر في ٢٢ مايو، ١٨١٥. وقد وعد الملك فيه باقامة دايتات اقليمية، وان يدعوا للانعقاد هيئة لكل ممثلي بروسيا، واصدار دستور. ولكن دايتات اقليمية ذات وظائف استشارية محدودة قد انشئت وفق قانون صدر في ٥ يونيو، ١٨٢٣.

(٤) في ظل قانون الدين القومي الصادر في ١٧، ١٨٢٠ لابد من موافقة الدايت الاقليمي على قروض الدولة.

(٥) دعا مرسوم ٣ فبراير ١٨٤٧ لانعقاد دايت اقليمي متحد.

(٦) القانون الانتخابي الصادر في ٨ ابريل ١٨٤٨.

**المصدر: الجريدة الراينانية الجديدة، العدد ١٧٠، ديسمبر ١٨٤٨. ارشيف
ماركسيست اورج على النت.**

(٤)

”ايها السادة، البيزنس هو البيزنس!“^(١)

لخص هانسمان بهذه الكلمات القليلة كل ليبرالية الدايت الاقليمي المتحد. لقد كان من المؤكد ان يكون هذا الرجل على رأس الحكومة التي استندت على جمعية المساومين، الحكومة التي كان عليها ان تحول المقاومة السلبية ازاء الشعب الى هجوم نشط على الشعب، حكومة العمل.

لم تحتوي أي حكومة بروسية على هذا العدد الكبير من أسماء تنتمي للطبقة الوسطى. هانسمان، ميلده، ميركر، كولفيتتر، جيركه! حتى فون اورسفالد، وهذه الوجوه المقبولة في البلاط، تنتمي كلها للارستقراطية الليبرالية في معارضة كونيجسبرج التي اعلنت ولائها للبورجوازية. مثل روت فون شريكنشتين وحده النبالة الاقطاعية البيروقراطية البروسية القديمة وسط هذا الحشد. روت فون شريكنشتين! العنوان الباقي من رواية آفلة عن اللصوص والفرسان خطها المرحوم هيلدهبراندت.^(٢) ولكن كان روت فون شريكنشتين الاطار الاقطاعي للجوهرة البورجوازية فحسب. لقد عنى وجود روت فون شريكنشتين في حكومة طبقة وسطى ما يلي، منطوقا بحروف كبرى: يقود النجم الجديد الصاعد، وهو الطبقة الوسطى البروسية الاقطاعيين البروسيين، والجيش والبيروقراطية. لقد وضعت هذه الشخصيات القوية نفسها تحت تصرفها، وقد وضعتهم الطبقة الوسطى امام عرشها، بالضبط كما كانت توضع الدببة امام حكام الشعب في شعارات ورموز النبالة القديمة.

قدمت حكومة هانسمان نفسها يوم ٢٦ يونيو للجمعية الوطنية. وبدأ وجودها الفعلي في يوليو. كانت ثورة يونيو هي ظهير حكومة الاعمال، بالضبط كما شكلت ثورة يونيو خلفية حكومة الوساطة.

لقد وظفت البورجوازية البروسية الانتصار الدموي الذي حققته حكومة باريس على البروليتاريا ضد الشعب، بالضبط كما وظف التاج البروسي الانتصار الدموي للكرواتيين في فيينا ضد البورجوازية. لقد كانت معاناة البورجوازية بعد نوفمبر النمساوي جزاء معاناة الشعب البروسي بعد يونيو الفرنسي. لقد زل التافهون الالمان في قصر نظرهم وضيق افقهم حين تصوروا انفسهم البورجوازية الفرنسية. فهم لم يقلبوا عرشا، ولم يقضوا على المجتمع الاقطاعي، ولا على اثاره الاخيرة، ولم يكن عليهم ان يدعموا مجتمعا خلقوه بأنفسهم. لقد اعتقدوا، بعد احداث يونيو، وبعد احداث فبراير، كما كان عليه الحال منذ بداية القرن السادس عشر وخلال القرن

الثامن عشر، انهم سوف يكونوا قادرين بطريقتهم التقليدية الماكرة في كسب النقود ان يسرقوا ثلاثة ارباع الربح الذي انتجه عمل انسان آخر. لم يكن لديهم لمحة عن حقيقة انه خلف يونيو الفرنسي قبع نوفمبر النمساوي وخلف نوفمبر النمساوي، ديسمبر البروسي. وهم لم يشكوا انه بينما واجه بورجوازية التاج المشتتة في فرنسا، عدو واحد فقط، وهو البروليتاريا، فإن البورجوازية البروسية المتداخلة مع التاج، امتلكت حليفا واحدا فقط هو - الشعب. ليس لأن هاتين المجموعتين لم تكن لهما مصالح متناقضة، ولكن لانهما ما تزالا ملتحمتين معا بنفس المصالح في مواجهة قوة ثالثة تضطهدهم معا على قدم المساواة.

لقد اعتبرت حكومة هانسمان نفسها حكومة ثورة يونيو. وعلى التضاد مع "السارقون الحمر" تحول التافهون في كل مدينة بروسية الى "جمهوريون محترمون" دون ان يكفوا عن ان يكونوا ملكيين ذوى قيمة، متغافلين عرضا عن حقيقة ان "الحمر" قد زينوا قبعاتهم بشرائط بيضاء وسوداء.⁽³⁾

اغتفر هانسمان لكامبهاوزن في خطابه امام العرش في ٢٦ يونيو ملكيته الغامضة الضبابية "ملكية على عرض الاسس الديموقراطية".

"ملكية دستورية مؤسسة على نظام المجلسين مع ممارسة السلطة التشريعية بشكل مشترك من المجلسين والتاج." كانت هذه هي الصيغة الجافة التي اختزل اليها الشاعر المنذر لسلفه المتحمس.

"تعديل اكثر الشروط اساسية التي لا تتلائم مع الدستور الجديد، تحرير الملكية من القيود التي تعوق افضل توظيفاتها ملائمة في جزء كبير من المملكة، اعادة تنظيم القضاء، اصلاح التشريع المالي وخاصة الغاء الاعفاءات الضريبية، الخ." وقبل كل شئ "تقوية الدولة وهو الامر الضروري لحماية الحرية التي تم كسبها" (من قبل المواطنين) "ضد الرجعية" (أي، استخدام الحرية لصالح الارستقراطية الاقطاعية) "والفوضوية" (أي، استخدام الحرية لصالح الشعب) "ولاستعادة الثقة المهزوزة".

كان هذا هو برنامج الحكومة، برنامج البورجوازية البروسية في الوزارة، والذي كان هانسمان ممثلها الكلاسيكي. كان هانسمان في الدايت الاقليمي المتحد اشد خصوم الثقة سخرية ومرارة، لأن - "ايها السادة، البيزنس هو البيزنس!" اعلن هانسمان في منصبه "استعادة الثقة المهزوزة" بوصفها ضرورة اولية لأن - هذه المرة خاطب الشعب كما كان قد خاطب العرش قبلا - لأن "ايها السادة، البيزنس هو البيزنس!"

قبلا كانت الثقة هي مسألة اعطاء النقود، اما هذه المرة فقد كانت الثقة التي تصنع النقود، اذن فقد كانت مسألة ثقة اقطاعية، الثقة المخلصة في الرب، والملك والوطن، والآن هي ثقة بورجوازية، ثقة في التجارة والمتاجرة، في فائدة رأس المال، في قدرة اصدقاء المرء التجاريين على الوفاء، أي الثقة التجارية، وهي ليست مسألة ايمان، حب او امل، وانما مسألة ائتمان.

لقد عبرت افكار هانسمان "استعادة الثقة المهزوزة" عن الفكرة الثابتة لدى البورجوازية البروسية.

يعتمد الائتمان على الثقة في ان استغلال العمل المأجور من قبل رأس المال سوف يتواصل بالطريقة التقليدية، للبروليتاريا من قبل البورجوازية، للبورجوازية الصغيرة من قبل البورجوازية الكبيرة. لذا فإن أي تحرك سياسي من جانب البروليتاريا، ايا ما كانت طبيعته، مالم يجري تحت الامرة المباشرة للبورجوازية يهز هذه الثقة، ويضر بالائتمان. وتدل عبارة "استعادة الثقة المهزوزة" حين يتمم بها هانسمان:

قمع أي تحرك سياسي تقوم به البروليتاريا وكل الشرائح الاجتماعية التي لا تتوافق مصالحها كلية مع مصالح الطبقة التي تعتقد انها تقف على قمة الدولة.

ولذا وضع هانسمان "تقوية الدولة" جنبا الى جنب مع "استعادة الثقة المهزوزة" ولكنه اخطأ في طابع هذه "الدولة". لقد سعى لتقوية الدولة التي تخدم الائتمان والثقة

البورجوازية، لكنه قوى الدولة التي تطلب الثقة وعند الضرورة تغتصب هذه الثقة بمساعدة قنبلة عنقودية، لأنه ليس لديها ائتمان. لقد اراد ان يقتصد في نفقات الحكم البورجوازي ولكنه حمل البورجوازية اعباء الملايين الباهظة التي كلفتها عودة الحكم الاقطاعي البروسي.

لقد اخبر العمال بايجاز شديد ان لديه علاجاً ممتازاً لهم. ولكن قبل ان يستطيع تطبيقه لابد ان تستعاد "الثقة المهزوزة" قبل أي شيء. وحتى تستعاد هذه الثقة على الطبقة العاملة ان تتخلى عن كل نشاط سياسي والا تتدخل في عمل الدولة وأن تعود لعاداتها الاولى. فإذا تبعت نصيحته واستعيدت الثقة، فسوف يثبت هذا العلاج القوى الغامض فعاليتيه ان لم يكن لشيء فعلى الاقل لأنه لم يعد مطلوباً ولا قابلاً للتحقيق، مادام المرض في هذه الحالة هو ذاته – مناهضة القانون والنظام البورجوازي – سيكون قد قضي عليه. وماهي الحاجة لدواء حينما لا يكون هناك مرض. ولكن اذا ما اصر الشعب بعناد على اهدافه، حسناً جداً، عندئذ سوف "يقوى الدولة" الشرطة، الجيش، المحاكم، البيروقراطية وسوف يطلق كلابه عليهم، لأن "الثقة" قد اصبحت "مسألة بيزنس"، و: "ايها السادة، البيزنس هو البيزنس!"

ان برنامج هانسمان، رغم انه يمكن ان يبتسم بسبب ذلك، هو برنامج امين، برنامج ذي نية طيبة.

لقد اراد ان يقوى سلطة الدولة ليس فقط ضد الفوضى، أي، ضد الشعب، لقد اراد ان يقويها ضد الرجعية ايضاً، أي، ضد التاج والمصالح الاقطاعية في حالة اذا ما حاولت ان تثبت نفسها ضد حافظة نقود البورجوازية ودعاؤها السياسية الاشد تواضعاً أي "الاشد جوهرية".

لقد عبر لب تركيب حكومة الاعمال عن احتجاج ضد هذه "الرجعية".

لقد تمايزت عن كل الوزارات البروسية السابقة الاخرى من ناحية ان رئيس وزراءها الفعلي كان وزير المالية. لقد اخفت الدولة البروسية بعناية لقرون حقيقة ان

ادارات الحرب، والشؤون الداخلية والخارجية، والكنيسة والشؤون التربوية وحتى خزانة البيت الملكي وكذلك الايمان، والامل والاحسان تعتمد على الشؤون المالية الدنيوية الدنسة. لقد وضعت حكومة الاعمال هذه الحقيقة البورجوازية المضجرة في اعلى عليين بوضعها السيد هانسمان على رأسها، رجل كان برنامج الوزارى مثل برنامج معارضته يمكن تلخيصه في كلمات:

”ايها السادة، البرنس هو البيزنس!“

لقد باتت الملكية في بروسيا ”شأنا نقدياً“.

دعونا ننتقل الان من برنامج حكومة الاعمال الى اعمالها.

لقد نفذت وعيدها بصدد ”تقوية الدولة“ ضد ”الفوضى“ أي، ضد الطبقة العاملة ومعها اقسام الطبقة الوسطى التي لم تلتزم ببرنامج السيد هانسمان. بل يمكن القول حتى بأنه بغض النظر عن زيادة الضريبة على شمندر السكر والكحوليات، كان رد الفعل هذا ضد الفوضى، أي ضد الحركة الثورية، هو العمل الجاد الوحيد لهذه الحكومة – حكومة الاعمال.

اقيمت عدة قضايا ضد الصحافة تأسيساً على القانون البروسي، وحيث لا يوجد كان يكفي قانون العقوبات^(٤) وجرت اعتقالات كثيرة استناداً على نفس ”الاسباب الكافية“ (صيغة اورسفالد)، ادخل نظام الكونستابلات الى برلين^(٥) بمعدل كونستابل لكل منزلين، وجرت تدخلات بوليسية في حرية تكوين الجمعيات، واستخدم الجنود ضد المواطنين العنيديين كما استخدم الحرس الوطني ضد العمال العنيديين، وتطبيق الاحكام العرفية كمصد – ما زلنا نذكر هذه الاحداث الاولمبية التي قام بها هانسمان. لذا ما من حاجة لذكر تفاصيل.

وقد لخص هذا الجانب من جهود حكومة الاعمال كولفينتر في الكلمات الآتية:

”ان الدولة التي تريد ان تكون حرة حقا يجب ان تكون لديها قوة شرطة كبيرة حقا تمثل ذراعها التنفيذي“، وهو ما غمغم بشأنه هانسمان في احدى ملاحظاته العادية:

”وهذا سوف يساعد ايضا بدرجة عظيمة على استعادة الثقة وعلى احياء النشاط التجاري المهمل بالاحرى.“

ووفقا لذلك ”قوت“ حكومة الاعمال قوى الشرطة البروسية القديمة، والقضاء، والبيروقراطية، والجيش، وقد ظن هانسمان انهم، ما داموا يتلقون رواتبهم من البورجوازية، سوف يخدمون البورجوازية ايضا. على أي حال لقد ”تقوا“.

من ناحية اخرى، لقد عبرت عن مزاج البروليتاريا والديموقراطيون البورجوازيون حادثة واحدة. فلأن بعض الرجعيين قد اساءوا معاملة بعض الديموقراطيين في شارلوتنبرج، قصف الشعب مقر رئيس الوزراء في برلين. وسرعان ما أصبحت حكومة الاعمال شعبية. أعد هانسمان قانونا في اليوم التالي ضد تجمعات الشغب والاجتماعات العامة. ويريكم هذا كيف تأمر ببراءة ضد الرجعية.

وهكذا تجلى النشاط الشعبي الفعلي الملموس لحكومة الاعمال في طابعه البوليسي. مثلت هذه الوزارة وجمعية المساومين في عيون البروليتاريا والديموقراطيون الحضريون – التي كانت اغليبتها ممثلة في الوزارة، والبورجوازية، التي الفت اغليبتها الاغلبية في جمعية المساومين – مثلت الدولة القديمة البوليسية البيروقراطية المجددة. واضيف لهذا رفض البورجوازية، لأنها حكمت وأقامت الحرس الوطني كجزء لايتجزأ من الشرطة.

تجلى ”انجاز احداث مارس“، كما رآها الشعب، في ان السادة ليبراليي البورجوازية، قد اخذوا على عاتقهم ايضا مهام الشرطة. وهكذا كانت هناك قوة شرطة مزدوجة.

لم تكن اعمال حكومة الاعمال، وانما مسودات قوانينها العضوية هي التي تبين بوضوح انها "قوت" الـ "شرطة" التعبير الاقصى عن الدولة القديمة وساققتها للعمل في صالح البورجوازية فحسب.

تشكل الملكية دائما بشكل او بآخر في القوانين التي تتعلق بالحكومة المحلية، والقضاء، والحرس الوطني، التي اصدرتها حكومة هانسمان، الحد الفاصل بين المنطقة المشروعة وغير المشروعة. وتحتوى كل هذه القوانين على اشد التنازلات عبودية للسلطة الملكية، لأن الوزارة البورجوازية اعتقدت ان جناحي الملكية قد ثبتت وانها اصبحت حليفا لها، وكتعزية فإن صعود رأس المال فوق العمل قد جرى تأكيده بشكل اشد قسوة.

ان قانون الحرس الوطني الذي صادقت عليه جمعية المساومين قد انقلب ضد البورجوازية وكان عليه ان يقدم ذريعة قانونية لتجريفها من السلاح. ووفقا لرغبة صائغيه، على أي حال، كان يصبح صالحا للتطبيق فقط بعد نشر القانون في الحكومة المحلية واصدار الدستور، أي بعد تعزيز حكم البورجوازية. قد تسهم الخبرة التي حازتها البورجوازية في صلتها بقانون الحرس الوطني في تنويرها وتبين لها انه في الوقت الحالي فان كل اعمالها التي قصد بها ان تكون موجهة ضد الشعب هي افعال وجهتها ضد نفسها فحسب. وبقدر ما يتعلق الموضوع بالشعب، فقد لخصت وزارة هانسمان في الممارسة الشرطي البروسي القديم، وفي النظرية بالتمايز العدائي البلجيكي بين البورجوازي وغير البورجوازي.^(٦)

والآن دعونا نتجه الى قسم آخر في البرنامج الوزاري، الى الفوضى في مواجهة الرجعية.

يمكن للوزارة بهذا الصدد ان تتبجح بالرغبات الورعة منها بالافعال الحقيقية.

من بين الرغبات البورجوازية الورعة قسمة وبيع الاراضي للملاك الخاصين،
التخلي عن الصناعة المصرفية وتبني المنافسة، تحويل التجارة البحرية^(٧) الى
مؤسسة خاصة، الخ.

لقد كان من سوء حظ حكومة الاعمال ان كل هجماتها الاقتصادية ضد الحزب
الاقطاعي قد جرت تحت حماية القرض الاجباري، وبصفة عامة فان محاولاتها من
اجل الاصلاح قد نظر اليها الشعب بوصفها حيل مالية فحسب لتستكمل نقص خزانة
"الدولة " القوية. وهكذا فقد نال هانسمان كراهية حزب بدون ان يكسب استحسان
الآخر. ولا بد من الاعتراف بانه قد غامر فقط بالهجوم على الامتيازات القطاعية
حينما كانت امور النقود اللصيقة بوزير المالية، قد اصبحت اكثر الحاحا. بهذا
المعنى الضيق فقد قال لأمرء الاقطاع:

"ايها السادة، البيزنس هو البيزنس!"

وهكذا فإن جهوده الايجابية لخدمة الطبقة الوسطى الموجهة ضد الاقطاعيين
تكشف نفس العفن البوليسي مثلها في ذلك مثل اجراءاته السلبية المصممة لـ "احياء
النشاط التجاري". لأنه في لغة الاقتصاد السياسي تسمى الشرطة خزانة الدولة.
اثارت الزيادة في رسوم جذور البنجر والمشروبات الكحولية التي مررها هانسمان
من خلال الجمعية الوطنية سخط اصحاب الاموال الذين يقفون مع الرب من اجل
الملك في سيليزيا، وبراندنبورج، وسكسونيا، وفي شرق وغرب بروسيا، الخ ولكن
بينما اغضب هذا الاجراء ملاك الارض الصناعيين في الولايات البروسية القديمة،
الا انها لم تسبب تعاسة اقل وسط مقطري الكحول من الطبقة الوسطى في اقليم
الراين، الذين ادركوا ان اوضاع المنافسة الجارية مقارنة باوضاع المنافسة في
الولايات البروسية القديمة قد اصبحت حتى غير مواتية لحد بعيد. وحتى تعم
الجميع، فقد اغضبت العمال في المقاطعات القديمة، التي عنت لهم ببساطة، ولم يكن
لها الا ان تعني، زيادة في اسعار ضرورتهم الاولية. لذا فقد عنى هذا الاجراء
فحسب تمويل خزانة "الدولة القوية". يكفي هذا المثل، مادام هو الاجراء الوحيد

الذي اتخذ بالفعل ضد الاقطاعيين من قبل حكومة الاعمال، وهي الوثيقة الوحيدة من هذا النوع التي اصبحت قانونا.

تسببت "وثائق" هانسمان التي تلغي كل اعفاءات الضرائب التصاعدية والعقارية^(٨) وخطته حول ضريبة الدخل في ان يهتاج منذورى "الله، الملك والوطن" كما لو كانت رقصة التارانتولا قد حركتهم (رقصة شعبية ايطالية - المترجم). وقد اتهموه بأنه شيوعي وحتى اليوم فإن فارس الصليب البروسي (تلميح الى جريدة الصليب - المحرر). تصلب نفسها ثلاث مرات عند سماعها اسم هانسمان. ويبدو لها هذا الاسم كإسم فرا ديافالو.^(٩) ان الغاء كل الاعفاءات من الضرائب العقارية، وهو الاجراء الوحيد الهام الذي ادخله وزير بروسى خلال الحكم المجيد لجمعية المساومين اخفق بسبب ضيق الافق المبدئى لليسار. وقد برر هانسمان نفسه ضيق الافق هذا. هل كان على اليسار ان يقدم موارد مالية جديدة لوزارة "الدولة القوية" قبل اكتمال اعلان الدستور؟

كانت الوزارة البورجوازية سيئة الحظ بامتياز لحد ان تنتهك اشد اجراءاتها راديكالية من قبل الاعضاء الراديكاليين في جمعية المساومين. وقد كان عقيما للغاية ان يتمخض كل جهادها المقدس ضد الاقطاع عن زيادة في الضرائب فحسب وهي ضرائب كانت مكروهة من كل الطبقات، وقد ادت كل فطنتها المالية الى اللجوء لقرض اجباري: اجراءان، هما اللذان قدما في النهاية اعانات مالية لحملة الثورة المضادة ضد البورجوازية. ولكن كان الاقطاعيون الارستقراطيين مقتنعين بمقاصد الوزارة البورجوازية "الشائنة". وهكذا فحتى صراع البورجوازية البروسية المالي ضد الاقطاع اثبت فحسب انه بسبب عدم شعبيته وعجزه فقد كان قادرا بسلاسة على جمع النقود ضد نفسه وياايها السادة، البيزنس هو البيزنس!

وبالضبط كما نجحت الوزارة البورجوازية بنفس القدر في استقزاز البروليتاريا الحضرية، وديموقراطي الطبقة الوسطى ونبلاء الاقطاع، فقد تمكنت من ان تعزل وتثير عداوة حتى الفلاحين الذين يضطهدهم الاقطاع، وفي هذا فقد دعمتها بشغف

جمعية المساومين. ولا بد من ان نتذكر بعد كل شئ انه خلال نصف الفترة التي وجدت فيها الجمعية فقد مثلتها وزارة هانسمان على نحو مناسب وان شهداء البورجوازية اليوم كانوا بالامس حاملي ذبول هانسمان.

وخلال حكم هانسمان قدم باتيو وثيقة لالغاء الالتزامات الاقطاعية (انظر النقد الذي وجهناه لها قبالا). لقد مثلت اشد التلفيقات بؤسا لرغبة بورجوازية عاجزة في الغاء الامتيازات الاقطاعية، تلك ”الايوضاع التي لا تتلائم مع الدستور الجديد“، فضلا عن خوف البورجوازية من أي انتهاك ثوري لأي شكل من اشكال الملكية ايا كان. اعمت الانانية البائسة الجبانة ضيقة الافق البورجوازية البروسية الى الحد الذي نفرت فيه الفلاحين، وقد كانوا الحليف الذي مست حاجتها اليه. قرر المندوب هانو في ٣ يونيو.

”توقف على الفور كل الاجراءات المعلقة التي تخص علاقات المالك بالفلاح وتبادل الخدمات حسب طلب أي من الطرفين حتى اعلان القانون الجديد القائم على مبادئ عادلة“.

ليس قبل نهاية سبتمبر، أي اربعة شهور تالية، في ظل وزارة بفويل، اصدرت جمعية المساومين وثيقة مخصصة لوقف الاجراءات المعلقة بين ملاك الارض والفلاحين، بعد رفض كل التعديلات الليبرالية وابقاء ”التحفظ على التأسيس المؤقت للالتزامات الجارية“ و”تحصيل الالتزامات والاقساط موضع التنازع“.

وفي اغسطس، ان لم اكن مخطئا، اعلنت جمعية المساومين ان قرار ننستيل بأن ”لا بد من الغاء السخرة على الفور“ لم يكن امرا عاجلا. هل كان يمكن ان نتوقع ان يعتبرها الفلاحون امرا عاجلا لحد حمل الهراوات ضد جمعية المساومين هذه، التي القت بهم وراء ظهرها فعادوا لاوضاع اسوأ من الاوضاع التي حققوها بالفعل بعد احداث مارس؟

لقد بدأت البورجوازية الفرنسية بتحرير الفلاحين. ومع الفلاحين استطاعت ان تقهر اوروبا. لقد كانت البورجوازية البروسية مشغولة لاقصى حد بأشد مصالحها محدودية ومباشرة حتى انها فقدت هذا الحليف بغباء وحولته الى اداة في يد الاقطاعيين المناهضين للثورة.

التاريخ الرسمي لتحلل وزارة الطبقة الوسطى معروف جيدا.

كانت "الدولة" قد "تقوت" تحت ذراعها الحامي لحد بعيد و ضعفت الطاقة الشعبية حتى انه في ١٥ يوليو كان كولفيتتر وهانسمان مضطرين لارسال تحذير ضد المكائد الرجعية للموظفين المدنيين، وخاصة رؤساء المقاطعات الريفية، ولكل حكام المقاطعات في المملكة، وفيما بعد لـ "جمعية حماية النبلاء وكبار ملاك الارض" بشأن امتيازاتهم^(١٠) التي التقت في برلين بموازة جمعية المساومين، وفي النهاية، تشكلت معارضة لما يسمى الجمعية الوطنية في برلين، من "دايت من الجماعات المحلية من اجل حماية حقوق ملكية ملاك الارض"، ودعيت هيئة تعود للقرون الوسطى، للانعقاد في لوساتيا العليا في ٤ سبتمبر.

ان الطاقة التي استهلكتها الحكومة وما يسمى الجمعية الوطنية ضد هذه الاعراض المتزايدة المناهضة للثورة والمنذرة بالخطر وجدت تعبيرها في ملامات الصحف. لقد استبقت الوزارة البورجوازية الحراب، والطلقات، والسجون والكونستابلات حصريا من اجل الشعب "حتى تستعيد الثقة المهزوزة وتحيي النشاط التجاري".

ايقظت احداث شفيدنتز^(١١) حيث قامت القوات في الحقيقة بقتل البورجوازية في شخص الحرس الوطني، الجمعية الوطنية من سباتها في النهاية. وفي ٩ اغسطس حفزت نفسها للقيام بعمل بطولي، ذلك الذي يتعلق باصدار امر لجيش شتين - شولز^(١٢)، الذي كانت اشد اجراءاته للقهر عنفا مناشدة ذوق الضباط البروسيين. اجراء قهري بالفعل! الا يمنع الشرف الملكي الضباط من ان يتبعوا املاءات الشرف البورجوازي؟

في ٧ سبتمبر، عقب شهر من اليوم الذي اصدرت فيه جمعية المساومين الامر لجيش شتين - شولز، قررت مرة اخرى ان قرارها كان قرارا حقيقيا ولا بد ان ينفذه الوزراء. رفض هانسمان ان يفعل هذا واستقال في ١١ سبتمبر، بعد ان عين نفسه مديرا لاحد البنوك براتب سنوي قدره ٦٠٠٠ تالر، لأنه - ايها السادة البيزنس هو البيزنس.

واخيرا في ٢٥ سبتمبر، وافقت جمعية المساومين بامتنان على صيغة بفويل المخففة تماما بقبول امر جيش شتين - شولز، حيث كان في هذا الوقت يوجد امر جيش رانجل الموازي^(١٣) وقد تركز العدد الاكبر من القوات حول برلين وقد تحول ذلك لمزحة رديئة.

ان مجرد نظرة على هذه التواريخ وعلى تاريخ امر جيش شتين - شولز يكفي لتبيان ان امر الجيش لم يكن السبب الحقيقي لاستقالة هانسمان. وانما تتعلق على الاغلب بأن هانسمان، الذي لم يخجل من الاعتراف بالثورة، كان عليه ان يخجل من هذا الاعلان الصحفي؟ هل علينا ان نصدق ان هانسمان، الذي كلما انزلق المنصب الوزاري من بين اصابعه، دائما ما التقطه، قد تركه في نوبة سخط ورع، على الطاولات الوزارية حتى يختطف؟ لا، ان رجلنا هانسمان ليس متعصبا. لقد خدع ببساطة بالضبط مثلما كان بصفة عامة ممثل البورجوازية المخدوعة. لقد اوحى له ان يفهم انه لن يستغنى عنه من قبل التاج في كل الاحوال. لقد جعلوه يفقد آخر آثار شعبيته حتى يمكن للتاج ان يضحى به على مذبح حقد كبار ملاك الاراضي في البلاد ويتخلص من وصاية الطبقة الوسطى. اصف الى ذلك فإن خطة الحملة التي اتفق عليها مع روسيا والنمسا تطلبت ان يرأس الوزارة جنرال تعيينه الحاشية من خارج جمعية المساومين. لقد "تقوت" الدولة القديمة بشكل كاف تحت حكم الوزارة البورجوازية حتى تضارب على هذا الانقلاب.

كان بفويل غلطة. لقد جعل انتصار الكرواتيين في فيينا حتى براندنبورج اداة نافعة.

كانت جمعية المساومين قد نشئت في ظل وزارة براندنبورج، وخذعت، وسخر منها، واذلت وطوردت، وبقي الشعب في اللحظة الحاسمة لامباليا. لقد كانت هزيمة الجمعية هي هزيمة البورجوازية البروسية، هزيمة الدستوريين، ومن ثم انتصارا للحزب الديموقراطي، ايا ما كان الثمن الفادح الذي دفعه مقابل هذا الانتصار.

والدستور المفروض؟

لقد قيل ذات مرة انه لن يسمح ابدا لـ "قصاصه من الورق" ان تقف بين الملك وشعبه.^(١٤) ويقال الان، سوف تكون هناك قصاصة من الورق فحسب بين الملك وشعبه. الدستور الحقيقي في بروسيا هو حالة الحصار. الدستور الفرنسي المفروض به مادة واحدة وهي الرابعة عشر التي ابطلتها.^(١٥) كل مادة من الدستور البروسي المفروض هي المادة ١٤.

يفرض التاج بواسطة هذا الدستور امتيازات جديدة، أي على نفسه.

انه يسمح لنفسه بحل المجلسين لامد غير محدود. ويسمح للوزراء في غضون ذلك باصدار أي قانون مرغوب فيه (حتى تلك التي تؤثر على الملكية وما شابهها) وهو يتيح للمندوبين ان يتهموا الوزراء بسبب هذه الافعال، ولكن في ظل خطر ان يصنفوا في وجود قانون الاحكام العرفية، بانهم "اعداء داخليين". واخيرا يسمح لنفسه، اذا ما صعدت حصة الثورة المضادة في الربيع، ان يستبدل "قصاصه من الورق" الغامضة هذه بالميثاق الاعظم الجرمانى المسيحي النابع عضويا من تمايزات طوائف القرون الوسطى، او ان يلقي باللعبة الدستورية بكاملها. وحتى في هذه الحالة فسوف تطوي البورجوازية المحافظة يدها وتصلي:

"الرب اعطى، والرب اخذ، تبارك اسم الرب!"

يظهر تاريخ الطبقة الوسطى البروسية، وتاريخ الطبقة الوسطى الالمانية بصفة عامة بين مارس وديسمبر ان ثورة خالصة للطبقة الوسطى وتأسيس حكم

بورجوازي في شكل ملكية دستورية هو امر مستحيل في المانيا، والبديلان الوحيدان
اما ثورة مضادة اقطاعية مطلقة او ثورة جمهورية اجتماعية.

سوف يميل القسم الحى من البورجوازية لأن يستيقظ مرة اخرى من لامبالاته –
وهذا مضمون قبل أي شئ بالوثيقة المذهلة التي سوف تقدمها الثورة المضادة بعد
الربيع، وكما يقول رجلنا هانسمان متفكرا:

ايها السادة، البيزنس هو البيزنس.

هوامش:

(١) مقتطف من خطاب هانسمان الذي القاه في الدايت الاقليمي المتحد الاول بتاريخ ٨ يونيو
١٨٤٧.

(٢) يشير ماركس هنا الى رواية هيلدبراندت

kuno von schreckenstein oder die weissagende traum gestalt.

(٣) كانت الالوان البروسية هي الابيض والاسود.

(٤) قانون العقوبات – وهو قانون العقوبات الذي صودق عليه في فرنسا عام ١٨١٠، وقد
ادخل في الاقسام الغربية والجنوبية الغربية من المانيا التي احتلها نابليون. وقد ظل معمولا به
في مقاطعة الراين حتى بعد ادماجها في بروسيا في ١٨١٥.

(٥) تشكلت الى جانب الشرطة العادية، هيئة من المدنيين المسلحين في صيف ١٨٤٨
لاستخدامها ضد الاجتماعات الشعبية والمظاهرات ولمهام التجسس. واسمي رجال الشرطة ممن
ارتدوا ملابس فاتحة الكونستبلات قياسا على الكونستبلات الخصوصيين في بريطانيا، الذين
لعبوا دورا هاما في فض المظاهرة الشارتية التي جرت في ١٠ ابريل، ١٨٤٨.

(٦) جرت المصادقة على الدستور البورجوازي – الارستقراطي البلجيكي في ١٨٣١ بعد
انتصار الثورة البورجوازية في ١٨٣٠ وقد حدد نصا للملكية حرم جزءا كبيرا من السكان من
حق الاقتراع العام.

(٧) اختصار لاسم شركة التجارة البحرية البروسية وقد تأسست كبنك تجارى في ١٧٧٢ وتمتعت بعدد من امتيازات الدولة الهامة. وقد منحت قروضا كبيرة للحكومة وفي الواقع فقد عملت كمصرفي. وقد اصبحت في عام ١٨٢٠ بنك الدولة البروسي.

(٨) وثيقة تلغي الاعفاء من مدفوعات الضرائب التصاعدية بالنسبة للاستقرائية، والضباط، المعلمون والكهنة وقد سلمها هانسمان للجمعية الوطنية البروسية في ١٢ يوليو ١٨٤٨. ووضعت على الجدول وثيقة تلغى الاعفاء عن الضريبة العقارية قدمها هانسمان في ٢١ يوليو ١٨٤٨.

(٩) فرا ديافولو – اسم مستعار لميشيل بيتزا، رجل العصابات الايطالي.

(١٠) اشارة الى الجمعية العامة لحماية المصالح المادية لكل طبقات الشعب البروسي وقد اجتمعت في برلين في ١٨ اغسطس. والجمعية التي ضمت كبار ملاك الارض بصفة اساسية كانت قد دعتها للانعقاد جمعية حماية الملكية وترويج رفاهية كل طبقات الشعب. وقد تغير اسم الجمعية بناء على قرار الجمعية العامة الى: جمعية حماية مصالح ملاك الارض.

(١١) هوجم الحرس الوطني في ٣١ يوليو ١٨٤٨ من قبل احدى القوات في شفيدنيتر وهي مدينة سيليزية عسكرية، وقد قتل ١٤ في الهجوم شخصا.

(١٢) في ٩ اغسطس ١٨٤٨، قبلت الجمعية الوطنية البروسية مقترحا من المندوب شتين تضمن طالبا لوزير الحربية بأن يصدر امرا عسكريا مفاده انه يتوقع من الضباط ان يظهروا مساندتهم للنظام الدستوري وان هؤلاء الذين يتبنون وجهات نظر سياسية خاصة مغايرة عليهم ان يتركوا الجيش بشرف. لم يصدر شريكشتين وزير الحربية مثل هذا القرار، قيد شتين طلبه في الجدول مرة اخرى، وقد جرى تمريره من الجمعية الوطنية في ٧ سبتمبر وبناء على ذلك استقالت وزارة اورسفالد – هانسمان. وفي ظل وزارة بفويل التالية صدر المرسوم في ٢٦ سبتمبر ١٨٤٨ وان في شكل ضعيف لحد بعيد حتى بات حبرا على ورق.

(١٣) اصدر الجنرال رانجل امرا عسكريا في ١٧ سبتمبر ١٨٤٨، اكد فيه على ان مهمته هي الحفاظ على ”النظام العام“ وهدد ”هؤلاء الذين يحاولون تحريض الشعب على ارتكاب افعال غير قانونية“ ودعا الجنود والضباط لأن يلتفتوا حول ملكهم.

(١٤) صدر بيان بهذا الغرض من فردريك ويلىام الرابع في ١١ ابريل ١٨٤٧، عندما افتتح الدايت الاقليمي المتحد الاول.

(١٥) تنص المادة ١٤ من الدستور الذي اصدره لويس الثامن عشر في ١٨١٤ على ان: "الملك هو رئيس الدولة ... وهو يصدر المراسيم والوامر الضرورية لانفاذ القانون حفاظا على امن الدولة."

**المصدر: الجريدة الراينانية الجديدة، العدد ١٨٣، ديسمبر ١٨٤٨. ارشيف
ماركسيست اورج على النت.**